بسم الله الرحمن الرحيم

يقول ابن أبي ليلى مفتي الكوفة وقاضيها : إنّي لأساير رجلا من وجوه أهل الشّام ، إذ مرّ بحمّال معه رمّان ، فتناول منه رمّانة فجعلها في كمّه . فعجبت من ذلك ، ثمّ رجعت إلى نفسي وكذّبت بصرى ، حتّى مرّ بسائل فقير ، فأخرجها فناوله إيّاها . فعلمت أنّي رأيتها فقلت له : رأيتك قد فعلت عجبا . قال : وما هو ؟!! قلت: رأيتك أخذت رمّانة من حمّال وأعطيتها سائلا ؟! قال: وإنّك ممّن يقول هذا القول ؟! أما علمت أنّي أخذتها وكانت سيّئة وأعطيتها فكانت عشر حسنات؟! فقال ابن أبي ليلى: أما علمت أنك أخذتها فكانت سيّئة وأعطيتها فلم تقبل منك!!

فهم غريب وموقف عجيب، ظن هذا الرجل بل أفتى لنفسه أنه سرق هذه الرمانة فكانت سيئة، ولأنه تصدق على مسكين فقد استحق عشر حسنات، ونسي أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

إن كان في هذه القصة من عجبٍ، فالأعجب تكرارها في واقع الناس اليوم بصور شتى، وأشكال متعددة! فكم ممن يقع في الحرام البين ويجيز لنفسه ويفتيها بما يوافق فهمه ومصلحته.

وهو مسلك وقعت فيه بنو إسرائيل، فحين حرم الله عليهم الشحوم أذابوها، وحين حرم عليهم الصيد يوم السبت احتالوا فرموا الشباك يوم السبت وأخرجوها يوم الأحد!

ولا شك أنهم لو سُئلوا عن هذا الفعل لقالوا وبكل ثقه نحن لم نأكل الشحوم المحرمة علينا، ولكننا أذبناها وبعنا الزيت، ونحن لم نصطد يوم السبت إنما يوم الأحد، وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم فعلهم بالتحايل والالتفاف، وحذرنا منه أشد التحذير بقوله: ((لا ترتَكِبوا ما ارتكبَتِ اليهودُ فتستحِلُّوا محارمَ اللهِ تعالَى بأدنَى الحِيَلِ)).

وقال عليه الصلاة والسلام: ((قاتَلَ اللهُ اليهودَ، إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لما حرَّمَ عليهم الشحومَ جَمَلُوها، ثُمَّ باعوها فأكلوا أثمانَها)).

وهاهم أخوة يوسف عزموا على أمر عظيم، وجرم خطير، وحجتهم فيه ما يفتونه لأنفسهم{إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ}

إن تفضيل يعقوب ليوسف ضلال مبين، ونيتهم قتل يوسف أو إخفائه وإبعاده عن أبيه أمر يسير هين ، ويمكن أن يتوبوا بعده بل ويكونوا من الصالحين، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطا من بعضهم لبعض.

وهكذا يُجيز كثير من الناس لأنفسهم اليوم الحرام ، أو ترك الواجبات بفتاوى شاذة ، يُظهرونها للناس ليبرروا فعلهم، ويخدعوا بها أنفسهم.

يغتاب أحدهم فإذا أُنكر عليه قال أنا أبين الخطأ وانصح لله، ومنهم من يتخلف عن الصلاة المكتوبة وعذره النوم ، والنائم معذور، وآخر يقع في الحرام البين ويقول إن الله غفور رحيم ،

وقائمة تطول ولا تنتهي ممن يفتي لنفسه عن جهل وضلال فيُحل ما حرم الله ، فيهلك بفتواه!

ومما يستند إليه من يفتون أنفسهم بتحليل الحرام مقولة (استفت قلبك)، وهذه المقولة جزء من حديث نبوي شريف ، فعَنْ وَابِصَةَ الأَسَدِيِّ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لاَ أَدَعَ شَيْئاً مِنَ الْبِرِّ وَالإِثْمِ إِلاَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَفْتُونَهُ فَجَعَلْتُ أَتَخَطَّاهُمْ فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللهَّ. فَقُلْتُ: دَعُونِي فَأَدْنُوَ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ. قَالَ: دَعُوا وَابِصَةَ ادْنُ يَا وَابِصَةُ- مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً- قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: يَا وَابِصَةُ أُخْبِرُكَ أَوْ تَسْأَلُنِي؟ قُلْتُ: لاَ بَلْ أَخْبِرْنِي. فَقَالَ : جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي وَيَقُولُ: يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ)).

نعم أستفت يا وابصة قلبك المليءَ بالإيمانِ، وهذه الجُملةُ إنَّما هي لِمَن كانَ قَلْبُه صافيًا سَليمًا؛ فهذا هو الَّذي يَحِيكُ في نَفْسِه ما كان إثمًا ويَكرهُ أنْ يَطَّلعَ عليه النَّاسُ، وإنْ أفتاكَ النَّاسُ وأفتوكَ. أي: وإنْ قالوا لك: إنَّهُ حقٌّ، فلا تأْخُذْ بقَوْلِهم؛ فإنَّهُ قدْ يُوقِعُ في الغَلطِ والشُّبْهةِ.

أما صاحب القلب المريض، والذين لا يفرق بين الحلال والحرام، فبماذا يستفت قلبه، وماذا سيفتي به ذلك

القلب الذي عب من الحرام حتى ثمل، وأكل من الباطل حتى تخم.

لقد جعل البعض استفتاء القلب مطية في الحكم بالتحليل أو التحريم على وفق أهوائهم ورغباتهم، فيرتكبون المحرمات ويقولون (استفت قلبك)!! مع أن المراد هو المؤمن صاحب القلب السليم يستفتي أحداً في شيء فيفتيه بأنه حلال ، ولكن يقع في نفسه حرج منه ، فعليه أن يتركه عملاً بما دله عليه قلبه السليم، فاستفتاء القلب يكون فيما أباح المفتي، أمَّا إذا حرم فيجب الامتناع.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : حتى وإن أفتاك مفتٍ بأن هذا جائز، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح إليه فدعه، فإن هذا من الخير والبر.

ويقول رحمه الله : (الإثم ما حاك في نفسك) أي : تردد وصرت منه في قلق، وكرهت أن يطلع عليه الناس لأنه محل ذم وعيب، فتجدك متردداً فيه وتكره أن يطلع عليك الناس.

وهذه الجملة إنما هي لمن كان قلبه صافياً سليماً، فهذا هو الذي يحوك في نفسه ما كان إثماً، ويكره أن يطلع عليه الناس، أما الْمُتَمَرِّدون الخارجون عن طاعة الله الذين قست قلوبهم فهؤلاء لا يبالون ، بل ربما يتبجحون بفعل المنكر والإثم .

ولعلنا نختم خطبتنا ببعض الأحاديث النبوية التي تحضنا على الورع وتقوى الله في المال:

عن أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ((يَا رَسُولَ اللهَّ، أَخْبِرْنِي بِمَا يَحِلُّ لِي وَيُحَرَّمُ عَلَيَّ. قَالَ: فَصَعَّدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَوَّبَ فِيَّ النَّظَرَ، فَقَالَ :الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ))، وَسُؤَالُ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنَّمَا كَانَ حِرْصًا عَلَى إِتْيَانِ الْحَلَالِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْحَرَامِ، وَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدَةً فِي مَعْرِفَةِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الْقَلْبِ الْعَامِرِ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، فَهُوَ مِيزَانٌ لِصَاحِبِهِ يَدْفَعُهُ لِلْبِرِّ وَالْحَلَالِ وَلَوْ نَفَّرَهُ النَّاسُ مِنْهُ، وَيَحْجِزُهُ عَنِ الْإِثْمِ وَالْحَرَامِ وَلَوْ زَيَّنَهُ النَّاسُ لَهُ، وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَوَاهِدُ أيضاً:

مِنْهَا حَدِيثُ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ((سَأَلْتُ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ :الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)).

أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، فَمَا الْإِثْمُ؟ قَالَ :إِذَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَدَعْهُ)).

وَعنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: ((حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ)).

فَكُلُّ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْوَرَعَ مَحَلُّهُمَا الْقَلْبُ، كَمَا أَنَّ النِّفَاقَ وَالشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ أَيْضًا. فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ عَامِرًا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى تَنَزَّهَ عَنِ النِّفَاقِ، وَتَحَصَّنَ مِنَ الشُّبُهَاتِ، فَكَانَ قَلْبًا سَلِيمًا. وَقَدْ يَمْرَضُ الْقَلْبُ بِشَيْءٍ مِنَ النِّفَاقِ، أَوْ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَهْوَاءِ، فَيَسْتَسْلِمُ لِلشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ.

إذا اسْتِفْتَاءُ الْقَلْبِ لَهُ ضَوَابِطُ نفهما من النُّصُوصِ وَهِيَ:

-أَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ الْمُسْتَفْتَي عَامِرًا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، سَلِيمًا مِنَ النِّفَاقِ وَالْأَهْوَاءِ، وَحُجَّةُ ذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} [الْأَنْفَالِ: 29].

- أَلَّا يَكُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ دَلِيلٌ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ شَرْعًا، فَيَقَعُ الِاشْتِبَاهُ بِسَبَبِ عَدَمِ الدَّلِيلِ، وَإِلَّا مَعَ الدَّلِيلِ فَلَا اسْتِفْتَاءَ لِلْقَلْبِ، بَلْ يَجِبُ الْعَمَلُ بِالدَّلِيلِ وَلَوْ خَالَفَ هَوَى الْقَلْبِ. قَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو زَيْدٍ الدَّبُّوسِيُّ: وَأَمَّا حَدِيثُ وَابِصَةَ: فَقَدْ وَرَدَ فِي بَابٍ يَحِلُّ فِعْلُهُ وَتَرْكُهُ، فَيَجِبُ تَرْكُ مَا يَرِيبُهُ إِلَى مَا لَا يَرِيبُهُ؛ احْتِيَاطِيًّا لِدِينِهِ، عَلَى مَا شَهِدَ لَهُ قَلْبُهُ بِهِ، فَأَمَّا مَا ثَبَتَ حِلُّهُ بِدَلِيلِهِ، فَلَا يَجُوزُ تَحْرِيمُهُ بِشَهَادَةِ الْقَلْبِ، وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَتْ حُرْمَتُهُ، فَلَا يَحِلُّ تَنَاوُلُهَا بِشَهَادَةِ الْقَلْبِ.

- أَنْ يَقَعَ الِاشْتِبَاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ، أَمَّا إِنْ كَانَتْ وَاضِحَةً فَلَا اسْتِفْتَاءَ لِلْقَلْبِ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ :فَدَلَّ حَدِيثُ وَابِصَةَ وَمَا فِي مَعْنَاهُ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْقُلُوبِ عِنْدَ الِاشْتِبَاهِ.

- أَنْ يَطْمَئِنَّ الْقَلْبُ وَيَسْكُنَ لِلْحُكْمِ.

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ اتِّبَاعِ الْمُتَشَابِهَاتِ، وَاسْتِحْلَالِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَادِّعَاءِ أَنَّ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ؛ فَإِنَّ النِّفَاقَ وَالْهَوَى أَيْضًا فِي الْقَلْبِ. وَلْيَسْعَ كُلٌّ مِنَّا لِصَلَاحِ قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ حَتَّى يَكْتَسِبَ نُورًا يَعْرِفُ بِهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالْخَطَأَ وَالصَّوَابَ.

والحمد لله رب العالمين